تاريخ ما بين السطور
برح بابل

رمضان مصطفى سليمان

برج الذاكرة: حوار مع الحجر

كانت الأبراج وما زالت مرآة الإنسان حين يطلّ على ذاته من علٍ .

كلُّ عصرٍ يُشيِّد أبراجه كما يُشيِّد أحلامه : عواصم العالم تتباهى اليوم بعلوّها ، وكأنما تظن أنَّها كلما صعدت في السماء اقتربت من الخلود. ناطحات زجاجية تلمع فوق الأرض كأوهامٍ مُصقولة ، تتنافس في الطول والهيبة والوظيفة .

غير أن التاريخ كعادته لا يُنصف الكثرة ، بل يختار القلة التي تهزّ الذاكرة ، تلك التي لا تلمع فقط بل **تقول شيئًا**.

+

لم يدخل التاريخ من الأبراج الحديثة إلا القليل : برج بيزا المائل ، برج لندن ، برج إيفل ، وبرج بابل الذي هدمته الأسطورة أكثر مما هدمه الواقع.

أما بعد هؤلاء، فليس ثمة بناءٌ يستطيع أن ينافس **الهرم الأكبر**، ذاك الصامتُ العظيم الذي يقف وحده على حافة الصحراء كضميرٍ حجريٍّ للعالم القديم.

+

في تلك الليلة التي جلس فيها المؤرخ نادر أمام الهرم، كانت الريح تجرّ الرمل كأوراقٍ صفراء تُقلبها يد الزمن.

قال لصديقه عالم الآثار عمران وهو يتأمل القمة المكسورة :

كل الأبراج تُطلّ على مدنها... إلا هذا ، يطلّ على التاريخ نفسه. ابتسم عمران وهو يُدقّق في منظاره الليزري :

بل يطلّ على ما قبل التاريخ ، على الزمن الذي لم يُكتب بعد. أتدري؟ بعض النقوش التي وجدناها حديثًا توحي بأنه لم يكن قبرًا فحسب ، بل برج مراقبة فلكيّ... وربما محطة تواصل مع ما فوق السماء.

سكت نادر لحظة . بدا وجهه شاحبًا تحت ضوء القمر ، كأنما استيقظ فيه سؤال قديم :

برج مراقبة ؟ أتقصد أنه كان **عينًا للإنسان على المجهول ؟**

ردّ عمران وهو يحدّق في العتمة :

أو ربما **عين المجهول على الإنسان.**

+

انفتح في ذهن نادر تيار وعيه كأنه باب سرّي داخل هرم آخر الهرم الذي يسكن رأسه.

كان يسمع صدى صوته الداخلي يقول :

ما الأبراج إلا رغبة الإنسان في مراقبة الله... ثم الخوف من أن يُراقَب بدوره. كل حجرٍ فيها اعترافٌ بالضعف المستتر في الطموح. تذكّر فجأة برج بابل. قال كمن يحدّث نفسه بصوت مسموع :

كم يشبه بابل هذا الهرم ! الاثنان وُلدَا من رغبة واحدة : **الصعود** . غير أن بابل سقطت بلعنة اللسان ، وهذا ظلّ صامتًا كأنه تعلّم الدرس.

قاطعه عمران :

تقول بابل وكأنها حقيقة لا أسطورة . أ تعلم أن هيرودوت كتب عنها قبل أن يُدوَّن سفر التكوين ؟

نعم، قرأتُ ذلك . كأن النصَّين وجهان لعملة واحدة ، كلاهما يصوغ القصة نفسها بأسماء مختلفة .

بل إن فولتير وديدرو نبّها إلى هذا التطابق ، فاتهمتهما الكنيسة بالزندقة وحرمتهما من بركاتها.

ضحك نادر بمرارة :

البرج دائمًا سبب للعقوبة. يبدو أن الارتفاع يُغضب السماء.

صمت الاثنان، وغاصا في صمت الصحراء.

تسلّل في ذهن نادر صوتٌ غامض ، كأنه يخرج من جوف الهرم نفسه . كان صوتًا متقطعًا ، لكنه واضح في معناه :

أنا الحجر الذي حلم أن يصير فكرًا ، وأنتم الفكر الذي ينهار ليصير حجرًا.

ارتجف قلبه . أهو هلوسة ؟ أم أن للزمن طاقةً تتكلّم عبر ذاكرة الصخور ؟

أجاب في داخله :

من أنت ؟ أفرعون أنت أم فكرة خالدة تسكن الحجارة ؟ أنا أنت حين تكتب ، وأنا أنت حين تصمت. أنا برجك الداخلي.

+

تذكّر نادر ما قرأه عن تيار الوعي في علم النفس الحديث، فابتسم بين خوفٍ وفضول. كان يشعر أن الحوار الداخلي يتحوّل إلى حوار كونيّ.

قال في نفسه :

ربما لم يُبنَ الهرم إلا ليكون مرآةً للنفس البشرية ، لا للسماء. فكلُّ إنسانٍ يحمل في داخله برجًا يريد أن يعلو به على الآخرين ، حتى يكتشف في النهاية أن قمّته تؤدّي إلى فراغ.

+

اقترب عمران من مدخل الهرم وهو يقول :

تعال، دعنا ننزل إلى الداخل. أريدك أن ترى النقوش التي وُجدت مؤخرًا.

نزل الاثنان في الممرّ الضيّق المائل ، حيث الهواء يزداد ثِقلاً كلما غاصا أعمق.

قال عمران وهو يشير إلى جدار مغطى بالرموز :

انظر ، هنا صورة عين ، تتجه إلى السماء، وتحتها كتابة لم نفكّ رموزها بعد . لكن بعض العلماء يظنّون أنها تتحدث عن الباب بين العالمين .

العالمين؟ الأرض والسماء ؟

ربما. وربما الداخل والخارج، الوعي واللاوعي، الإنسان والقدر.

توقّف نادر أمام العين المنقوشة . أحسّ كأنها تحدّق فيه بالذات ، كأنها ترى من خلاله .

همس في داخله :

هل كان الفراعنة يبحثون عن الله... أم عن ذواتهم ؟

ثم سمع صدى داخليًا يجيبه :

البحث عن الله طريقٌ إلى الذات ، والبحث عن الذات طريقٌ إلى الله... لكن الطريقين لا يلتقيان إلا في الصمت.

+

خرج الاثنان بعد ساعات إلى ضوء الفجر. كانت الشمس تشرق خلف الهرم، فبدا وكأنها تولد منه.

قال نادر بصوت متعب :

هل تفكّر أحيانًا أن هذا الهصديقتي رم هو أبراج اليوم في صورتها الأولى ؟

كيف ذلك ؟

كلُّ برجٍ حديث هو محاولة لتقليده من غير وعي. الأبراج الزجاجية التي تعلو في دبي ونيويورك وشنغهاي ليست سوى امتداد لرغبةٍ فرعونيةٍ قديمة: تحدّي الأبدية بالبناء . الفرق أن الأهرام صُنعت من حجرٍ صادقٍ ، أما أبراجنا فمن زجاجٍ يرى نفسه في انعكاسه.

ابتسم عمران وقال :

لعلّ الإنسان لم يتغيّر ، بل غيّر أدواته فقط.

بل تغيّر خوفه... صار يخاف من السقوط أكثر مما يحلم بالصعود.

+

جلس نادر على الرمل الممتد في الصحراء ، يتأمل الهرم بإعجاب كمن يحدّث أبًا بعيدًا . في داخله كان يسمع حوارًا ثالثًا يتعارض مع سابقيه ، و أعمق من الحوارين السابقين ، كأن ضميره هو يتجادل مع ذاكرته بحثا عن ذاته :

هل كنتَ تبحث عن الحقيقة أم عن معنى للحياة ؟

وهل بينهما فرق ؟

نعم، فالحقيقة لا تُنقذ أحدًا، أمّا المعنى فيمنحك سببًا للبقاء.

إذن لماذا لم يُخبرنا الهرم بمعناه ؟

لأنه يعرف أن المعنى لا يُمنح... بل يُكتشف في الداخل.

أغلق عينيه فرأى ذاته صاعدًا درجاتٍ لا تنتهي داخل الهرم ، وكلّما اقترب من القمة تلاشت الحجارة وصار يصعد في الفراغ.

سمع صوتًا يقول :

ها أنت في الأعلى ، فماذا ترى ؟

فأجاب : أرى نفسي فقط... لكنّها صغيرة جدًا.

وهذا هو الدرس، أن ترى صِغَرَك لتفهم عَظَمة الوجود.

+

حين فتحت عيناه، كانت الشمس قد ارتفعت. قال له عمران وهو يلتقط أدواته :

في النهاية، كلّ برجٍ يحاول أن يُمسك بالسماء ، فيكتشف أن السماء في داخله .

ابتسم نادر وقال:

وربما هذا ما أراد الفراعنة قوله، لكننا كنّا مشغولين بترجمة النقوش أكثر من فهم الصمت.

+

سارا نحو طريق العودة ، والهرم خلفهما يلمع كأنه وُلد من جديد.

قال نادر في نفسه ، وهو يدوّن في دفتره الأخير:

الأبراج ليست حجارة ، بل مرايا للروح. وكل عصرٍ يبني برجه ليقيس به حجم خوفه من الزوال. أما الهرم ، فظلّ شامخًا لأنه لم يُبنَ ليُرى ، بل ليُفكَّر فيه.

+

وفي نهاية المخطوطة كتب:

الهرم ليس أطول برج في التاريخ ، بل أعمقه . لأن ارتفاعه الحقيقي يبدأ من الداخل ، من تلك اللحظة التي يكتشف فيها الإنسان أن الصعود إلى السماء يبدأ حين ينزل إلى أعماق نفسه .

برج بابل: لغة الإنسان الأولى

لم يكن في الأرض آنذاك غير لغة واحدة. هكذا يقول **سفر التكوين** ، وهكذا تبدأ الحكاية القديمة التي حملت معها ظلال الطوفان ، وماءً لم يجفّ بعد من ذاكرة البشر.

حين نزل قوم نوح من السفينة ، كانت الأرض مبللة بالدهشة ، والسماء مثقلة بالصمت . وقفوا عند ضفة المجهول يتساءلون : أين نحن ؟ وما الذي ينتظرنا بعد أن انقشعت الغيوم ، وابتلع البحر ما كان من المدن والجبال والأنفاس ؟

بعد الطوفان

كانت الأرض تلمّ رمادها ببطء . لا شيء يلوّح بالأمل سوى رائحة الطين. قال أحدهم وهو يمدّ يده نحو الأفق :

هذا هو المكان الذي رست عليه السفينة ، جبلٌ اسمه آرارات **.** **تبادلت العيون نظرات حائرة . لم يكن المكان وديعًا كما تخيّلوا ، بل قاسٍ ، صامت ، كأنّ الطبيعة لا تزال تتذكّر خطاياهم القديمة.**

قالت صديقتي ، وهي تشير إلى خريطة قديمة كانت بين يديها في قاعة الدرس :

العلماء يزعمون أن هذا الموضع يقع في المنطقة الشمالية الغربية من آسيا الوسطى ، عند جبل آرارات **.**

ابتسمتُ، ثم قلتُ متأمّلًا :

ولكن سفر التكوين **يروي أمرًا آخر. يقول**

» :ولم يكن مفرّ من الإقامة في تلك الأرض التي رست عليها السفينة، وهي أرض شِنعار.«

أرض شنعار... كم تحمل هذه الكلمة من غموض ! إنها، كما تروي النصوص القديمة ، أرض ما بين النهرين ، **مهد الحضارات الأولى ، واللغة الأولى ، والفكرة الأولى التي تجرّأت على السماء.**

X

جلس القوم يفكرون في موضعهم الجديد ، وتناهى إلى أسماعهم همسُ الأرض وهي تنشف من أثر الطوفان.

قال أحدهم:

هذه الأرض رخوة ، لا حجارة فيها ، فكيف نقيم بيوتًا

أجابه آخر ، وقد التمعت في عينيه شرارة اكتشاف:

نصنع من الطين ما يماثل الحجارة ، ثم نحرقه بالنار حتى يتماسك ويغدو في قوة الصخور . ولن يعوزنا **القطران** ، فقد جرّبناه في السفينة ، حين طليناه بها لتقاوم الماء والمطر.

أصغيتُ إليهم وكأنني أسمع صدى الوعي الإنساني وهو يتفتح من جديد.

إنها ليست مجرّد حيلة للبقاء، بل هي لحظة **الخلق الثاني**، لحظة إدراك الإنسان لقدرته على تحويل الضعف إلى صلابة ، والطين إلى بيت ، والفناء إلى بناء.

في تلك اللحظة ، وُلدت **المدينة** الأولى ، لا لأن الأرض أرادت ذلك ، بل لأن الخوف من الضياع دفعهم إلى **تشييد معنى للبقاء**.

X

قالت الصديقة وهي ترفع حاجبها بدهشة :

أذكر العهد القديم هذا كله ؟

قلتُ :

وأكثر ! بل هو لا يخرج عمّا كتبه **هيرودوت** في أوراقه عن تاريخ العالم قبل سفر التكوين بألف عام . ألم أقل لكِ إن التطابق مذهل ، يثير تساؤلات بالغة الخطورة في تاريخ الأديان ؟

ساد صمت قصير . في داخلي ، بدأ تيار الوعي يتدفق كالنهر الذي يبحث عن مجراه.

كنت أفكر:

هل يكتب التاريخ نفسه بلغة مختلفة ؟ أم أننا نحن الذين نعيد تأويل الأسطورة كلما ضاقت بنا الحاضر؟

أكاد أرى وجوههم ، أولئك الذين خرجوا من السفينة . كانوا يظنون أن النجاة بداية ، لكنها كانت امتحانًا آخر : كيف يعيش الإنسان بعد أن يرى فناء العالم ؟ كيف يبني من ذاكرة الماء حجرًا جديدًا ؟بناء المدينةصنعوا من الطين المحروق جدرانًا قليلة ، ثم نظروا إليها بدهشة الأطفال . كانت متماسكة ، صلبة ، تقف في وجه الريح.

قال كبيرهم :

ها نحن نصنع لأنفسنا بيتًا ، فلتكن لنا مدينة

وهكذا وُلدت الفكرة ، **مدينة على الطين** ، **حلم على الأرض**.

لكن في أعماق أحدهم ، كان صوت خفيّ يتمتم:

لماذا نبني ؟ ألن يرسل الله طوفانًا آخر؟

ربما إذا صعدنا إلى السماء ، نرى ما يراه الله... نعرف كيف يقرر الطوفان ومتى ينتهي .

ذلك الصوت لم يكن فردًا واحدًا ، بل هو **صوت الجماعة** حين تتحول الخطيئة إلى طموح.

كان فيهم من يبني بيديه ، ومن يحلم بعقله ، ومن يتساءل في صمته عن جدوى العلوّ إذا كانت الأرض لا تحتمل الخطأ مرة أخرى.

وعي الإنسان وصراعه

في دراستي لهذا النص، لم أعد أراه حكاية عن **برج بابل** فقط ، بل عن **الوعي الإنساني حين يغترّ بنفسه**.

ذلك الطين الذي تحوّل إلى حجارة، كان يحمل بذرة التحدي.

حين قالوا :

هلمّ نبنِ لنا مدينة وبرجًا رأسه في السماء، ونصنع لأنفسنا اسمًا لئلّا نتبدّد على وجه الأرض«،

كانوا في الحقيقة يعبّرون عن **خوفهم من المجهول** أكثر من رغبتهم في الخلود.

هنا يتجلّى البعد النفسي:

الإنسان، بعد الكارثة ، لا يثق في الأرض . يريد أن يعلو عليها ، أن ينجو من قَدَرها.

لكن حين يعلو كثيرًا ، يبدأ في نسيان الأصل ، نسيان أن الطين الذي يبني منه برجه هو ذاته الذي خُلق منه.

حوار مع الذات

في تلك اللحظة من النقاش ، شعرت أنني لست باحثًا في نص قديم ، بل شاهدًا على حوار الإنسان مع ذاته الأولى.

قلت في داخلي :

كم من بابلٍ نبني اليوم بأسماء مختلفة ؟ كم من برجٍ نُشيّد خوفًا من الغرق في فوضى الوجود ؟

اللغة التي تفرّقت يومها ليست إلا رموزًا لاختلاف النفوس ، وتنافر القلوب.

ربما لم يغضب الله من ارتفاع البرج ، بل من عُلوّ النية التي صاحبت بناؤه ، من تلك الرغبة في أن يكون الإنسان إلهًا صغيرًا في عالم من الطين.

X

في عمق التاريخ

أستحضر هنا شهادة هيرودوت مرة أخرى، الذي تحدّث عن أرض ما بين النهرين باعتبارها «مهد الكتابة والطين والنار.«

هل يمكن أن يكون ما ورد في سفر التكوين مجرّد إعادة سرد لتاريخٍ أقدم ، حين وعى الإنسان سرّ النار والطين؟

ربما لم يكن البرج إلا رمزا إلى أول محاولة لتشييد هوية مشتركة قبل أن تتشظّى اللغات.

وحين تفرّقت الألسن، لم يكن ذلك عقابًا بقدر ما كان توزيعًا للوعي على أمم الأرض.

X

بين الأسطورة والعلم

في قاعة الدرس ، كنت أتابع الجدال بين الطلبة حول صدقية الرواية.

قال أحدهم وهو يقلب أوراق بحثه :

العلماء يربطون القصة بحضارة سومر وبابل ، حيث كانت الأبراج المعابد العالية التي تُعرف بالصديقتي «زقّورات.«

أجبته:

نعم، لكن ما يعنينا هنا ليس البناء المادي وحده، بل المعنى الذي حمله.

فكل زقّورة ، وكل برج ، هو في جوهره محاولة للاتصال بالسماء. والسماء في الوعي الإنساني ليست إلا رمزًا للمعنى الأعلى الذي لا يُدرك إلا بالسموّ الروحي.

تدخّلت الصديقة قائلة:

إذن، برج بابل ليس مجرد بناء حجري؟

قلت مبتسمًا:

لا، إنه حكاية الوعي حين يتكلّم الطين باسم الخلود.

X

سقوط البرج وبقاء الإنسان

وحين تفرّقت الألسن ، لم يسقط البرج وحده ، بل انهار التفاهم الإنساني أيضًا.

كأن اللغة نفسها كانت الجسر الأخير بين البشر والسماء . منذ تلك اللحظة ، صار كل إنسان يحمل لغته الخاصة، وكل أمة تبني برجها الرمزي الخاص، وكل حضارة تكتب طوفانها بطريقتها.

لكن المفارقة أن برج بابل لم ينتهِ فعليًا، بل بدأ فينا من جديد. كلما حاول الإنسان أن يعلو فوق إنسانيته، عاد يكرّر خطيئة بابل:

أن يجعل من الطين ربًّا، ومن التقنية خلاصًا، ومن اللغة جدارًا بدل أن تكون جسرًا.

X

حين أغلقت الكتاب في نهاية اليوم، شعرت أنني لم أقرأ سفر التكوين فقط، بل قرأت **رحلة الإنسان من الطوفان إلى البرج، ومن الوحدة إلى التفرّق، ومن الإيمان إلى التجربة**.

أدركت أن بابل ليست مدينة في التاريخ، بل **حالة في النفس البشرية**، وأن الطين الذي صنع البرج ما زال يسكن أيدينا وعقولنا.

في أعماقي، سألني صوت خافت:

هل كانت بابل خطأً أم ضرورة؟

لم أجب.

ربما كان علينا أن نبني البرج لنعرف حدود السماء. وربما كان علينا أن نخطئ لنتعلم أن اللغة، مهما تنوّعت، تظل تحاول قول الشيء نفسه :**إن الإنسان يبحث عن معنى وجوده في طين العالم.**

برج التفرقة
حين تكلّم الناس بأصواتٍ لا تُفهم

في يومٍ بدا كأنه آخر أيام الوئام ، اجتمع القوم في ساحة المدينة التي كانوا يشيدونها حجراً فوق حجر.

لم يكن في وجوههم غير بريق الأمل، غير أن رجلاً منهم، بملامحٍ يعلوها الغبار ونظرةٍ غائرة في الأفق، تقدّم بخطواتٍ ثابتة، وقال بصوتٍ يقطر يقينًا:

في رأيي أن المدينة التي شرعنا في بنائها لن تحمي شعبنا من الضياع. إنّها – وإن علت أسوارها – عاجزة عن أن تحفظ أرواحنا من التشتت . فلكي نبقى شعبًا واحدًا ، رأيًا واحدًا ، لا بد أن نسكن جميعًا في مبنى واحد.

ساد الصمت لحظةً، ثم تردّد صدى الاستفهام من أفواه الجمع:

مبنى واحد؟ وكيف يسع المبنى الواحد كلّنا ؟

ابتسم الرجل ابتسامة غامضة كأنها تسبق كشف سرٍّ قديم ، ثم قال:

نبني برجًا، لا تقل مساحة قاعدته عن ألف فرسخ . نقيمه طابقًا فوق طابق ، على هيئة هرمٍ تتناقص طبقاته كلما ارتفع . وفي قمته نجعل أقلّنا عددًا ، وأحدّنا بصرًا .

تبادلوا النظرات . أحد الشيوخ ، وقد غمر الشك صوته، قال:

ولِمَ اشترطتَ حدّة البصر في سكان القمة ؟

فأجابه الرجل:

ليُراقبوا الأفق البعيد ، وينذرونا إن دنا عدوٌّ أو وحشٌ من حيث لا نعلم. فالرؤية من القمة حياة ، والعجز عن البصر موتٌ بطيء .

+

لم يكن حديثه غريبًا على من قرأ ما كتبه هيرودوت ، ولا على من طالع سفر التكوين . فقد ورد كما نقلت الأسفار أن قومًا شادوا برجًا من طوابق كثيرة ، أقامت في كل طابقٍ منهم أسرٌ لا تُحصى ، ثم تكاثرت مع الزمن ، حتى غدت مدينةً عموديةً تموج بالحياة . كانوا يتواصلون بلسانٍ واحد ، فلا يضيع منهم أمر ، ولا تُنسى كلمة.

لكن السماء كما تقول الأسطورة نظرت إليهم يومًا ، فرأتهم كأنهم يتحدّون قانون الاختلاف الذي به تنبض الحياة . ونزل صوت الربّ ، يقول كما لو يردّد ما أوحي إليه :

شعبٌ واحد ، لغةٌ واحدة ، هذا أمرٌ لا يستقيم ولا يدوم . سأفرّقهم بأن أجعل كلٌّ منهم لا يفهم ما يقول الآخر .

فتمّت الإرادة.

ومع مرور الزمن ، تباعدت الطوابق . نشأت في كلٍّ منها لغة جديدة ، ولهجةٌ مميّزة ، وصار التواصل بين أهل الطوابق عسيرًا . انعدم التفاهم ، واشتعل الخلاف ، وتشاحنوا وتباغضوا ، حتى ضاقت بهم الأبراج . فنزلوا منها ، وتفرّقوا في الأرض ، قريبها وبعيدها.

ومنذ ذلك اليوم سمّيت مدينتهم باب بعل ، أو بابل ، أي **مدينة التفرقة**.

+

يروي هيرودوت كما تروي الأسفار أن الملك في تلك الحقبة جلس فوق قصره العالي ، وألقى ببصره نحو البرج المتعالي في السماء . أحسّ أن البناء لم يعد حجارته ، بل كبرياء الإنسان الذي يريد أن يبلغ الخلود

قال الملك، كأنّ في صدره وحيًا لا يسمعه سواه :

لا يُمكن لشعبٍ واحدٍ أن يبقى على لسانٍ واحد . الوحدة المطلقة موتٌ بطيء . التعدد هو سبيل البقاء ، وإن كان في ظاهره تفرقة.

ثم أشار إلى السماء ، كأنما يخاطب قوىً خفية :

لتتعدّد ألسنتهم ، وليتعذّر عليهم الفهم ، حتى يدركوا أن الصعود بلا تنوّعٍ سقوطٌ مؤجل.

+

رفع المؤرخ اليوناني قلمه ، وسجّل ما رأى وما سمع ، وأضاف كما اعتاد أن أشجع رجال البرج كان اسمه ناني ، وأن زوجته هيلينا كانت أجمل نساء الأرض، وأن أبناءهما وقد هربوا من البرج عبروا البحر ، ونزلوا في جزرٍ سُمّيت باسمهم ، جزر ناني ، أي أرض الهيلينيين.

ابتسم الراوي العربي الذي كان يقرأ هذه الرواية بعد قرون ، وقال في نفسه :

لا عجب في هذا التلفيق ، فهيرودوت كما عهدناه ينسب كل عظيمٍ لقومه ، ويكسو الأساطير بوشاح التاريخ.

ثم التفت إلى زميله الجالس بجانبه في المكتبة الموحشة ، وقال :

لكنّ العجب يا صديقي أن تُضاف هذه الخرافة بعينها إلى العهد القديم ، في سفرٍ من أسفاره ، سفر التكوين . كيف نوفّق بين هذا وذاك؟

أجابه الزميل ، وهو يقلّب صفحات القرآن الكريم في ذهنه :

تفسير ذلك واضح في قول الله تعالى :

[يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظًّا مما ذُكّروا به ، ولا تزال تطّلع على خائنةٍ منهم إلا قليلًا منهم .]

ليس بعد هذا القول ما يُقال.

+

جلس الراوي طويلاً بعد هذا الحوار ، يحدّق في كلمة البرج . لم تعد في ذهنه بناءً من طينٍ وحجر ، بل رمزًا للإنسان حين يحاول أن يعلي من شأنه فوق حدود طبيعته .

همس في نفسه :

هل كان البرج حقًّا قائمًا ؟ أم أنّه لم يتجاوز طابقين من الخيال ؟

ثم أخذ يُفكّر ، كأنّ تيار الوعي يجرفه إلى ما وراء الزمان :

ربما لم يكن البرج إلا صورةً للعقل البشري حين يحاول الصعود بلا إيمان ، وحين يتحدّى خالقه بما يظنه علمًا ووحدة. فاللغة تلك التي ظنّوها قيدًا كانت رحمًا يجمعهم . فلما تناثرت الألسنة ، تمزّقت الأرواح. ما الفرق بين برج بابل وبين مدننا الحديثة ؟ ألسنا نعيش في طوابق من إسمنتٍ ولغاتٍ وصراعاتٍ لا تنتهي ؟

تسلّل السؤال إلى عمق روحه . أحسّ أن التاريخ لا يعود إلا ليذكّر الإنسان بأنه يكرّر خطاياه في أثوابٍ جديدة.

+

توقّف الراوي عند آخر سطرٍ في المخطوط، فقرأ:

تفرّق الناس بأمر ربّهم، فصارت لغاتهم حجارةً في أفواههم، لا تُبنى بها المدن، بل تُهدم بها القلوب.

ثم كتب بيده تعليقًا هامشيًا:

البرج ما زال يُبنى فينا ، في كل عقلٍ يتعالى على الآخر ، وفي كل شعبٍ يرى في لغته خلاصًا من سواه . بابل ليست مدينة مضت ، بل عقلٌ مقيمٌ في كلّ زمان .

+

من خلال هذا الحوار الممتدّ بين التاريخ والأسطورة ، بين هيرودوت وسفر التكوين ، بين النصّ المقدّس والرؤية الفلسفية ، يتّضح أن الإنسان ظلّ منذ البدء يخاف التفرقة ، ثم يصنعها بيده.

وما برج بابل إلا رمزٌ عميق لنزعةٍ بشريةٍ قديمة: الرغبة في السيطرة ، في التوحيد القسري ، في تجاوز حدود الطبيعة.

لكنّ الخالق أراد أن يعلّم الإنسان درسًا لا يُنسى:

أنّ الاختلاف رحمة ، وأنّ الوحدة القسرية عبودية ، وأنّ الكلمة إذا لم تُفهم لا تبني ، بل تهدم.

وهكذا، جاءهم رجل منهم برأيٍ عجيب ، ولم يكن يعلم أن فكرته ، وإن بدت طريقًا إلى الوحدة ، كانت البذرة الأولى للتفرقة.

همساتُ الرمل فوق أطلال الزّيجورات

لمّا جلستُ أمام الدكتور **شريبر** في مساءٍ بابليٍّ خانق الرطوبة ، شعرتُ كأنّ الزمن قد أفرغ جيوبه فجأة وألقى أمامنا خرائطه كلّها . كان الرجل ، بملامحه المحفورة كأفاريز من طينٍ محروق ، يحدّق في البعيد أكثر ممّا يحدّق في وجوهنا ، كأنّ نصفه يعيش بين أطلالٍ لم يعد يراها غيره ، ونصفه الآخر يناور بين كلماتٍ تخشى أن تفسد سحر الأسطورة.

كنتُ أستمع ، وأحدّث نفسي ، وأتذكّر الكتب التي لقّنتنا أنّ برج بابل كان شاهقاً حتى لامس السماء ، وأنّ البشر حاولوا أن ينافسوا الآلهة ، فاختلطت ألسنتهم عقاباً . أمّا هنا ، في خيمة التنقيب ، كان الرجل الألماني ينسف الأسطورة بلا رحمة... ومع ذلك ، كنت أشعر أنّ شيئاً ما لا يزال يراقص الهواء فوق الرمال ، كأنّ أطياف الأبراج المزعومة تُصرّ على الظهور رغم غياب الدليل.

+

قال الدكتور شريبر، بصوتٍ كأنّه ينبعث من بئرٍ بعيدة:

قضيتُ عشرين عاماً أبحث في بابل... فلم أعثر على برجٍ من مئة طابق أو ألف كما زعم هيرودوت . عثرنا فقط على الزيجورات... مدنٌ متدرجة، لا أبراج ".

وفي اللحظة التي نطق فيها كلمة زيجورات ، تردّد الصدى داخل رأسي:

زيجورا... زيجورا... مدينةٌ تتنفّس كقلبٍ حجريّ.

وانتابني إحساس مباغت بأنّني أعرف هذا المكان من قبل. ليس من الكتب ، بل من حلمٍ قديم ، حلم طفلٍ كان يرسم مدناً لا يعرف لها اسماً . هل كنتُ ، في حياةٍ سابقة ، واحداً من أولئك الذين صعدوا درجاتها الشرقية ؟ أم كنتُ بائع أغنياتٍ يتجوّل في أسواقها ؟

لم أُفصح عن شيء. تركتُ تيّار الوعي يهمس وحده.

سألتُه:

مبانٍ ذات طوابق... أكانت أساساتها ناطحةً للسماء ؟

ابتسم ، وكانت ابتسامته تميل إلى الشفقة أكثر منها إلى التفسير:

خمسة طوابق فقط... يا بني. أوسع الزيجورات وأعظمها ، لم يجاوز ارتفاع عمارة متواضعة من القرن العشرين .

دخل صوت آخر في رأسي ، كأنّه ظلّي الذي يرفض التصديق:

خمسة طوابق فقط؟ ألهذه الدرجة كانت المخيلة الإنسانية جائعة للطيران؟

قلت له :

أكانت على هيئة برجٍ ، كما صوّرها سفر التكوين ؟

هزّ رأسه بتأنٍّ :

كلا... بل كانت أقرب إلى هرم سقّارة المدرّج . وجدنا بعضها مطموراً شبه كامل... ارتفاعه عشرون متراً فحسب ، ومع ذلك كان عالَماً قائماً بذاته: شرفات واسعة ، وسلالم قبلية ، ودروب للكهنة في الجهة الشرقية.

وتخيلتُ السلالم. عشرات الناس يصعدون مع الفجر. أطفال يجرون. كهنة يهمسون بأسماء الآلهة . نساء يحملن جراراً . وكل خطوة تُصدر طنيناً يشبه قرع الطبول القديمة.

+

وفجأة، بينما يواصل شريبر حديثه ، أشعر أنني أنفصل عن المكان قليلاً . يمتدّ الزمن داخل رأسي مثل شريطٍ يلتف حول نفسه .

لماذا أبحث عن هذا البرج ؟

هل أريد الحقيقة ؟ أم أريد الأسطورة لأتّكئ عليها ؟

أسمع صوتاً يشبه معلمي القديم يقول :

الإنسان لا يحتاج إلى برج ليصعد . يكفيه وهمٌ جميل .

لكنّ صوتاً آخر ، أشدّ حدّة، يردّ:

الوهم لا يُقيم حضارة... ولا يكتب تاريخاً.

أعود إلى الخارج ، إلى صوت الدكتور ، فأجده يقول :

بعد الطابق الثاني وجدنا شرفةً تدور حول البناء كله طولها تسعون متراً . تخيّل ، يا بني ، أهل الزيجورا يقفون عليها ليلاً... يراقبون القمر وهو يعبر بين آلهتهم .

توقفت أفكاري عند كلمة القمر .

وفي داخلي تردّد مشهدٌ غامض :

رجلٌ بابلي يحمل قيثارته ، يقف على تلك الشرفة ، يغنّي لامرأة تقف في الطابق الأول. كانت الموسيقى تتسلّل عبر الزمن حتى وصلت إليّ... أم أنّ خيالي يختلقها الآن ؟

+

قلتُ له :

حقاً؟ هل كان البابليون يبيعون الأغاني ؟

ضحك الدكتور ، وكانت ضحكته مثل حفيف أوراق متيبّسة :

بل ويشترونها أيضاً يا بني . كانت هناك زيجورا كاملة متخصصة في بيع الشعر والموسيقى . بابل كانت مدينة نابضة... ليست مدينة برج .

حين قال ذلك ، شعرت بأنّ الأسطورة انهارت ، لكنّ شيئاً آخر بدأ يتشكل ، شيئاً أكثر جمالاً :

مدينة تبيع الشعر.

مدينة تُقايض الذهب بالأغنية.

مدينة تعتبر اللحن سلعة ثمينة لا تقلّ عن القمح أو الأقمشة .

تساءلتُ – مرة أخرى داخلياً :

أيعقل أن الحضارات تقوم على الأغنية أكثر مما تقوم على الطوب المحروق ؟

أيعقل أن الأسطورة تولد من نغمةٍ ضاعت في الهواء ، فظنّ الناس أنها صرخة برجٍ يلامس السماء ؟

+

في داخلي اشتعل جدل :

هل أخطأ هيرودوت ؟

أم أنّ القدماء كانوا يحاولون وصف الزيجورات ، فلما عجزت لغاتهم بالغوا في صورة البرج ؟

أم أنّ الحقيقة والأسطورة كانتا تتمازجان منذ البداية ، فلا يمكن فصل إحداهما عن الأخرى ؟

كان التاريخ يكلّمني بصوتٍ خفيض كأنه همس حفيف أوراق الشجر :

كل مدينة تخلق أسطورتها... لأن الواقع وحده لا يكفي ليستمر الناس في العيش .

+

قال الدكتور، وهو يقلب بين أوراقه :

المؤرخ اليوناني ، يا أبنائي ، اختلط عليه الأمر . جمع عدة زيغورات في مبنى واحد. ثم سمّاه برج بابل. لا أبراج هناك... فقط مدن صغيرة ، لكل منها سكانها وأسواقها ومعبدها .

سألته و أنا شارد الذهن :

تعني أنّ بابل الحقيقية لم تكن سوى مجموعة عصديقتي مصديقتي ارات حسنة البناء ؟

أجاب بثقةٍ لا تُناقش :

تماماً . ولكنها ، رغم ذلك ، كانت أعظم تعبير عن حياةٍ نشيطة نادرة . إنك تستطيع أن تشتمّ فيها رائحة التجارة ، والصوت البشري ، والموسيقى ، والأقمشة ، والذهب... بابل كانت مدينة تنبض ، لا مدينة تتعالى .

وشعرتُ أنّ الرجل لا ينقض أسطورة بقدر ما يستبدلها بأخرى. أسطورة أكثر واقعية... لكنها أيضاً أكثر حرارة وإنسانية.

+

لكنّني – رغم كل التفسيرات – أحسست بفراغٍ غريب داخلي .

هل كنت أبحث عن حقيقة البرج حقاً ؟

أم أنّني كنت أريد أن أصدق أنّ البشر حاولوا في يومٍ ما الوصول إلى السماء ؟ أن يعرفوا سر السماء في ضيائها ، و في ظلمتها ؟

عن أنفسهم يبحثون في هذا الكون اللامحدود .

تساءلت في داخلي :

إذا كان البرج وهماً ، فهل نحزن ؟ أم نفرح ؟

الصوت الداخلي أجابني :

ربّما كان الوهم ضرورياً ليجعل الحضارات تتحرك . من دون وهمٍ كبير... يبقى الإنسان في الطابق الأرضي .

+

عندما انتهى الدكتور شريبر من حديثه ، شاع صمتٌ طويل . صمت يشبه رمل بابل حين يبتلع الآثار ببطءٍ لطيف.

نهض الرجل، وأشار بيده إلى الصحراء الممتدة خلف المخيم:

كل ما ترونه هنا ، يا أبنائي ، زخرفة من زمنٍ بعيد . قد نكون وجدنا الزيجورات... ولكن من يضمن أننا لم ندفن يوماً برجاً لم يُرد الزمن أن يترك له أثراً ؟ التاريخ ليس علماً فحسب... إنه حكاية أيضاً .

تركنا، ومشى بعيداً.

وبقيتُ أنظر إلى الموقع... إلى الحفر التي تلمع كجروحٍ على جسد الأرض .

سمعتُ صوتي الداخلي يهمس :

قد لا يكون البرج موجوداً... ولكنّ الرغبة في بناء برجٍ لا تموت .

+

وربما...

ربما كانت بابل في يومٍ ما مدينة آمنت أنّ الموسيقى تُصعد الإنسان أكثر مما تصعد الطوابق ، وأنّ الزيجورا ليست طابقاً ، بل حياة كاملة.

وربما كان هيرودوت ، في لحظة شرود ، يسمع تلك الأغاني فظنّها أصوات برجٍ يخترق السماء.

وربما...

كان التاريخ يبتسم الآن في الظلمة، ساخراً منّا جميعاً.

فهل كان هناك برج ؟

أم أنّنا نحن البرج ؟

يبقى السؤال معلّقاً...

كما تبقى الأغنية التي تبيعها بابل... تعبر العصور بلا دليلٍ أثري ، لكن بدليلٍ داخلي لا يُمحى.

أغنياتٌ تُباع على دَرَج الزَّمان... وحكايةُ برجٍ ظنَّه الناسُ ألفَ طابق

لم يكن الدكتور **يوهان شريبر** يتحدث بصفته عالم آثار فحسب ، بل كأنه يستدعي كل أرواح المؤرخين الذين حاولوا عبثًا أن يكتبوا " الحقيقة " دون أن تتسرب إليها خيوط الخيال . كان صوته يشبه ارتجاج طبلة قديمة عُثر عليها في مقبرة ملك سومري ، رخيمًا ، عميقًا ، ومشحونًا بنبرةٍ تُشبه ندمًا بعيدًا لا يخصه وحده ، بل يخص التاريخ نفسه.

جلس قبالته شابان :**أنا**، التي أحاول كما في كل مرة أن أفهم كيف يتحوّل التاريخ إلى مرآةٍ واسعة يمكن لأي راوٍ أن يرسم عليها وجهه ، وصديقتي **ليان** التي كانت عينُها تلمع دائمًا حين يُذكَر اسم "بابل" كأنها تبحث فيها عن جزءٍ ضائع من ذاكرتها.

رفع الدكتور نظارته، ثم قال بنبرةٍ فيها شيء من التحدي:

" لعلكما ، بعد الاكتشافات الحديثة في المنطقة التي كانت فيها مدينة بابل القديمة ، قد اقتنعتما بأن برج بابل ليس سوى أسطورة... خيالٌ صاغه هيرودوت ، وارتداه ثوبًا تاريخيًا منزّهًا ، وهو في الحقيقة تزويرٌ... مزخرف ".

تجمّدت الكلمات في الهواء لحظة.

لطالما شعرت بأن التاريخ ليس بريئًا ، لكنه أيضًا ليس " مذنبًا..." هو فقط حكاية يكتبها الأقوى.

واصل الدكتور كلامه ، وقد أطبق أصابعه فوق بعضها كأنه يمسك بخيطٍ غير مرئي :

"أجل، هيرودوت أبو التاريخ أقدم من أرّخ للعالم... نعم. لكننا الآن ، بعد الألواح السومرية والبرديات المصرية ، نعرف أنه كان أكبر من زوّر لصالح قومه من اليونانيين . كل شيءٍ عظيم... نسبه إلى ما أسماه العبقرية الهيلينية . شنشنةٌ نعرفها من أخزم، كما يقول مثلُكم العربي".

كنت أراقب انفعالاته :

كل حركةٍ في وجهه كانت تشبه موجةً تُحاول أن تُعيد تشكيل شاطئ فكرةٍ ما.

ثم مال بجسده قليلًا إلى الأمام :

" من ذا الذي يصدق أن برجًا من طوبٍ محروق قد ارتفع ألف طابق ؟ أن سكنته أقوامٌ متعددة اللغات والألوان ؟ الصورة جميلة... لكنها لا توافق المنطق ولا فن العمارة. ما من برجٍ قادر على حمل هذا الخيال إلا في أوراق هيرودوت ".

هنا...

أحسستُ بشيءٍ ما يشتعل في داخلي :

لماذا لا يترك لنا البشر شيئًا جميلًا دون أن يشكّكوا فيه ؟ حتى الخرافة تحتاج أن تتنفس.

تنحنح الدكتور ، فعاد صوت الواقع :

" قلتُ لكم سابقًا أننا وجدنا الأصل الحقيقي لما ظنه هيرودوت برجًا من ألف طابق ".

سألته ليان بعينين متسعتين:

" الزيجورات...؟"

" أجل ".

ثم بدأ يصفها كأنه يفتح بابًا يقود مباشرة إلى قاعةٍ من الزمن القديم :

" الزيجورات : مجمعات سكنية لا يزيد ارتفاعها عن ستة طوابق. الطابق الأخير للكهنة وقرّاء الطوالع ، ومعه غرف للحراس ، ما يمكن أن نسميه بالإدارة العسكرية للمدينة ".

كانت عيناي تتنقلان بين شفتيه وهو يتكلم ، وبين الخرائط المعلّقة على الجدار خلفه .

ستة طوابق...

كم يبدو الرقم متواضعًا أمام طموح الإنسان القديم الذي أراد ملامسة السماء.

ثم تابع:

" ولكل زيجورا سوقها الخاص . نشاطٌ تجاري واحد لا يتعدونه ".

قاطعته مبتسمة :

" لكن... الأغاني ؟ سوقٌ لبيع الأغاني ؟" .

ضحك الدكتور ضحكةً قصيرة هادئة :

" أذكر أنك لم تصدقي ذلك . لكن نعم... سوقٌ تُباع فيه الأغاني كما تُباع التوابل . لكل أغنية ثمن. لكل لحن قصة ".

ترددتُ قبل أن أقول:

" الأغاني تُشترى... ولكن لا تُباع بذاك الشكل ".

هزّ رأسه :

" ألا يقول حكماؤكم : ليس بعد العين أين؟ حسنًا... دعونا نغوص في جوف الزمن . سندخل إلى بابل—عام 1400 قبل ميلاد المسيح— ونرى بأعيننا ما كشفته الألواح".

+

لحظة قال :

" نغوص في جوف الزمن "،

شعرت بشيء غريب. كأن أبوابًا في رأسي انفتحت دفعة واحدة ، وأخرى كانت موجودة منذ زمن طويل... بدأت تنغلق .

كنت أتساءل :

هل نحن الذين نذهب إلى الماضي ، أم أن الماضي هو الذي يمرّ فوقنا مثل ظلّ طائرٍ ضخم ؟

كنت أسمع داخلي أصواتًا لا تنتمي للغرفة :

ضجيج سوق ، رنين نحاس ، خطوات جنود ، بكاء طفل... ثم ارتفع صوتٌ آخر ربما من أحلامي القديمة يقول :

" الأغاني لا تُباع... الأغاني تُصبحك أنت ".

تراءت لي بابل كما لو أنني رأيتها من قبل .

حروف اسمها في ذهني تتوهج كأنها محفورة على جدار قلبي منذ الطفولة .

أشعر أحيانًا أنني كنت هناك...

أو لعل روحي كانت تبحث عن قصةٍ تُشبهها.

وفجأة، لا أدري كيف، أصبحنا في خيالي على الأقل في قلب بابل.

كانت الشمس تميل إلى المغيب، لونها يميل إلى دمٍ خفيف، والهواء مشبع برائحة الطين المحروق والأعشاب. صوت الرجال يعلو بالمساومة، وصوت النساء ينخفض بالضحكات الخافتة، وصوت النايات يأتي من بعيد كأنه ينساب من صدعٍ في الجدار الفاصل بين عالمين.

وخلف كل هذا... كان هناك **الزيجور**.

ست طبقاتٍ ترتفع كأنها جرحٌ قديم في ظهر الأرض .

طينٌ وحجر، لكنه يتوهج بعظمةٍ لا تحتاج إلى ألف طابق كي تبدو سماوية.

في الساحة المخصّصة للأغاني ، كان المشهد ساحرًا .

رجال يحملون ألواحًا صغيرة محفور عليها كلمات ، نساءٌ ينسجن ألحانًا بأصابعهن ، وشابٌ نحيل يبيع " أنفاسًا لحنية " كما يسمّيها.

اقتربتُ منه.

نظر إليّ بعينين فيهما دهشة من زمنٍ آخر وسأل:

" أأنتِ من بنات الجنوب أم الشمال ؟"

تلعثمت.

كان صوتي في داخلي يجيب بدلًا عن لساني:

" أنا من مكانٍ لم يُكتب بعد في الألواح "...

لكني قلت فقط:

" أنا... من بعيد".

ابتسم:

"كل القادمين إلى سوق الأغاني من بعيد . لا أحد يأتي من قريب... من يسكن قرب الأغنية يتعب منها ".

كلماته لامست شيئًا عميقًا في داخلي .كأنني أفهم ما يقصد...

نحن لا نحب الأشياء القريبة جدًا . القرب يطمس السحر.

ثم رأيت لوحًا حجريًا صغيرًا في يده :

"ما هذا؟ "

" أغنية عن امرأةٍ انتظرت حبيبها عشرين عامًا. لم يعد... لكنها ظلت تغنّي كي لا تصدّق موته ".

ارتعش شيء بداخلي . لم أعرف لماذا.

+

صوت الدكتور شريبر أعادني فجأة إلى الغرفة :

" هذه بعض ما ذكرته الألواح... ونحن نحاول إعادة بناء الصورة كما كانت ".

نظرت إليه وأنا أحاول إخفاء اضطرابي :

" هل تصدق أنت هذه التفاصيل ؟ أقصد... سوق الأغاني ؟"

هنا صمت لحظة ، ثم قال بصوت منخفض :

" أحيانًا... أشعر أن الماضي ليس ما نكتشفه بالحفريات... بل ما يوقظه فينا ".

التفتُ إلى ليان...كانت نظرتها تقول إنها شعرت بما شعرت به أنا.

ثم أضاف الدكتور ، بنبرة فلسفية غامضة:

" ربما كان برج بابل الحقيقي ليس بناءً من ألف طابق... بل ألف قصة ، ألف لحن ، ألف لغة تأبى أن تختلط. وربما... ضياع تلك اللغات هو ما جعلنا نظن أن البشر تفرّقوا ".

+

هل يمكن أن تكون الخرافة أصدق من التاريخ ؟

هل نبني الأبراج لا لنصل السماء... بل لنسمع أصواتنا من أعلى ؟

هل الأغاني تُباع... أم أننا نحن من نبيع أجزاء من قلوبنا كلما اشترينا لحنًا ؟

كنت أرى هيرودوت أمامي ، يكتب بحماسٍ طفل ، ويزيّن الأحداث كما يزيّن الشاعر أول قصيدةٍ له .

ربما كان مذنبًا... وربما كان فقط... خائفًا من الفراغ.

+

وقف الدكتور شريبر ليغادر، لكنه توقف عند الباب وقال:

" غدًا... سأريكما شيئًا آخر. شيئًا لم نعلن عنه بعد ".

سألته بقلقٍ لم أستطع إخفاءه :

" يتعلق ببابل؟"

ابتسم... ابتسامةً غريبة ، ليست فرحًا ولا سخرية :

" يتعلق بكم أنتما... أكثر مما يتعلق ببابل ".

فتح الباب وخرج.

لكن في رأسي...

ظلّت يدُ الشاب البابلي تلوّح لي بلوح الأغنية.

وظل سؤالٌ يحفر داخلي:

هل يمكن أن يكون ما نبحث عنه في التاريخ... هو في الحقيقة ما ضاع منا نحن ، لا ما ضاع من المدن ؟

وأحسست أن الرحلة لم تبدأ بعد ...بل إن ما رأيناه لم يكن سوى الدرج الأول من... الزيجور.

أو ربما... من برجٍ آخر، غير مرئي، لا يُبنى بالطوب... بل بالفكرة الخيالية .

همسات البردي...
رحلة في أسواق الخلود

لمّا خطونا إلى بابل عام 1400 قبل الميلاد ، أحسست كأن الهواء نفسه مُثقلٌ بالأساطير. المدينة تضجّ بأنفاس البشر والآلهة معًا ؛ طبول بعيدة تُقرَع ، وصيحات الكهنة تتصاعد في طرقاتها الضيقة زاحمة الأصوات ، يتبارون في اجتذاب المارة إلى معابد بعل ومردوخ وعشتار . كأنهم يخشون أن تُنسى آلهتهم إن لم يصرخوا بها في كل لحظة ، في كل زاوية ، في كل فجر.

لم يكن ذلك الصخب ضجيجًا فقط ، بل كان جدارًا حيًا من الأصوات العتيقة التي تعود ألف عام إلى الخلف ، تلتصق بالحواس وتدفع العقل إلى دوّامة من الأسئلة.

مرّت صديقتي شديدة التعجّل بيننا كأن آثار الزمن لا تعنيها ، وقالت وهي تلوّح بيدها بضيق واضح :

ما لنا ولهؤلاء يا دكتور؟ خذنا إلى الزيجورا... إلى الأسواق التي يُباع فيها الشعر والغناء. وبالله عليك، لا تقل إنهم يبيعونه في كاسيتات مسجّلة كما في عصرنا!

ضحك الدكتور شويبر ضحكة قصيرة كمن يكشف سرًا صغيرًا، وقال:

بل العجب يا ابنتي أنهم يفعلون ذلك تقريبًا . يبيعون ما يشبه الكاسيتات... كراسات من البردي مستوردة من مصر بأغلى الأثمان ، يحفظون فيها أحدث أغاني بابل ، وكلها أغنيات عاطفية تتغنّى بالجمال والخصب والحب .

كانت نظرتي تتنقل بين المارين ، بين بائعي التمر والدهن والبرونز ، بين الكهنة الذين يرفعون تماثيل صغيرة لآلهتهم فوق رؤوسهم ، وبين تلك المدينة التي تبدو وكأنها تتنفس من خلال جدرانها . ووسط كل ذلك ، شدّنا الدكتور نحو سوق الأغنيات.

كان السوق ساحة واسعة تُظلّلها ستائر منسوجة بخيوط صوفية بألوان صارخة ، وتنبعث منها رائحة الطلع والتمر والنحاس والمسك . تتكدّس دكاكين صغيرة على الجانبين ، وعلى أبوابها جلود ملونة وبرديات محمولة على ألواح خشبية.

وما إن خطونا خطوة واحدة حتى اندفع نحونا بائع نحيل العود ، له لحية دقيقة وعيون تلمع بدهاء التجار ، وصاح :

سيدي ، تفضّل! أحدث أغاني مطربنا الشهير "كوديا". الثمن... عشرون شيكل فقط!

ردّ الدكتور مؤدبًا:

شكرًا يا عزيزي.

لكن البائع لم يتركه يفلت :

لا ترفض أغاني كوديا ! لا أحد يرفضها . على الأقل اسمعوا كلمات هذه الأغنية . إنها أحدث ما كتب شاعرنا العظيم "لوجال" إعجابًا بصوت كوديا.

رفعت صديقتي السريعة حاجبيها وقالت بنفاد صبر:

يا سيدنا البائع ، نحن لم نأت نشتري ، بل...

قاطعها بإصرار كمن يخشى أن تُفوته صفقة العمر:

مجرد الاستماع ! ليس هناك أحلى من كلماتها. اسمعوا:

كم أنتِ جميلة يا حبيبتي ،
عيناكِ حمامتان نائمتان
شفتاكِ تقطران شهداً مائعاً ،

الجميلة بين الجميلات
...أنا سمراء، ولكني جميلة يا بنات بابل ...
تقدّمت صديقتي المثقفة خطوة ، تراقب البائع بعين ناقدة وقالت :
هذه الكلمات قرأتها من قبل.
شهق البائع كمن أُهينت كرامته التجارية:
مستحيل ! هذه كتبها لوجال قبل أسبوع فقط. ونسخناها في كراسة الأغاني أمس . لا تُبخسوا الناس أشياءهم يا آنسة !
رفعت رأسها بثقة وقالت:
لكنها موجودة في "نشيد الأنشاد" في العهد القديم .
ابتسم الدكتور شويبر وقال بنبرة الخبير:
يا آنسة... كلمات لوجال عاشت ألف عام في الذاكرة الرافدية حتى اقتبسها كاهن لاحقًا وألحقها بالنصوص المقدسة . ليس غريبًا أن تتشابه الأصوات حين تعبر القرون.
همست هي:
صدق الله العظيم: "يُحرّفون الكلم عن مواضعه "
قلت لهم وأنا أحاول أن أغيّر المزاج:
دعونا من الأغاني المضروبة يا جماعة، ولنُكمل جولتنا.
لكن شيئًا ما في داخلي لم يترك تلك الأغنية تمضي بسهولة.

*

كل خطوة كنت أخطوها في السوق كانت تعيدني إلى تلك الجملة
:أنا سمراء ولكني جميلة
لم تكن الجملة مجرد وصف ، بل كانت صراع مدينة بأكملها مع هويتها. بابل ، تلك البقعة التي تمتزج فيها الشعوب كامتزاج الطين بالنهر. كنت أسمع في داخلي صوتًا آخر ، صوتي ربما ، أو صوت تلك المرأة التي كتب عنها لوجال ، أو امرأة أخرى مجهولة في زمن آخر، تهمس:
كيف نرى أنفسنا وسط هذا الصخب ؟
كيف نبحث عن الجمال وسط المنافسة بين الآلهة والأغنيات ؟
هل الجمال حقيقة ؟ أم مجرد تجارة أخرى كبردي الشعر ؟
كان عقلي ينساب كسيلٍ بين دكان وآخر، بين صرخة كاهن يلوّح بتمثال مردوخ ، وصوت بائع يروج لكراسة شعر ، وبين التاريخ الذي ينساب بلا توقف.

*

قلت في داخلي:

هل نحن حقًا هنا ؟ أم أن الزمن لعبة بيد الذاكرة ؟

هل بابل موجودة حولي... أم أننا من نعيد بنائها ؟

وتجاوب صوت آخر ، ربما خيالي ، ربما ظلّ من الماضي:

لا أحد يزور بابل دون أن تُعيد صياغته.

وتدخّل صوت ثالث ، ساخر قليلًا ، كأنه صدى صديقتي المتعجلة:

كفى فلسفة! نحن هنا لنستمع ونرى، لا لنضيع بين الهذيانات.

لكن الصوت الأعمق... ذلك الذي يأتي من داخلي كطبقة خفية تحت الكلمات...

كان يقول :

كلمات لوجال ليست مجرد شعر. إنها شاهد على أن البشر ، مهما تغيّرت أزمانهم ، يكتبون الحب بالطريقة نفسها... ثم ينازعون بعضهم عليه ، يقتبسونه ، يسرقونه ، أو يجعلونه مقدسًا.

*

اقترب منا طفل صغير ، يحمل رقًا صغيرًا ملفوفًا بخيط قنّب.

قال بخجل:

أسيادي... هل تحبون الشعر؟ لدي أغنية أخرى غير أغاني كوديا. أرخص... ثلاثة شواقل فقط.

انحنت صديقتي المثقفة وقالت له بلطف:

عمّن هي؟

قال الطفل وهو يتحاشى النظر إلى صاحب الدكان المجاور:

عن فتاة من نينوى. كتبها شاب غريب . قال إنه سيغادر غدًا ، فباع قصيدته بدراهم قليلة.

كانت في صوته مسحة من الحزن... حزن رحيل الشعر قبل رحيل أصحابه.

وتساءلت في داخلي:

كم القصائد التي ضاعت لأن شعراءها لم يجدوا من يشتري رقّهم ؟ كم كلماتٍ لو بقيت كانت ستصبح أناشيد مقدسة بعد ألف عام ؟

قال الدكتور وهو يشكر الطفل ويعيد الرق:

الشعر ليس للبيع يا صغيري... الشعر يُشترى بالقلب ، لا بالدراهم.

ضحك الطفل وقال ببساطة بابلية قديمة:
لكن القلب لا يطعم خبزًا يا سيدي.
كأن جملة الطفل هذه كانت درسًا تاريخيًا مختصرًا... لا يحتاج إلى معبد لتفسيره.
و كأن الطفل داخل الأسطورة .

*

تابعنا السير ، والمدينة تتفتح أمامنا كلوحٍ من طين محفور بالأساطير. الزيجورا تلوح لنا من بعيد ، طبقاتها ترتفع كدرجات نحو السماء. وبينما نمضي ، تتداخل الأصوات أكثر وأكثر:
هتاف كاهن ، أنغام قيثارة ، بكاء طفل ، نداء بائع ، ضحك عابر، أغنية من بردي جديد ، أغنية أخرى من ألف عام ، ومسافة زمنية لا تتعدى ورقة واحدة.
كنت أشعر أنني أسمع بابل وهي تتكلم باسمها:
أنا مدينة الكلمات... هنا لا يموت شيء، ولا يولد شيء... بل تتكرر الأشياء بأسماء جديدة.

*

قالت صديقتي المتعجلة، وهي تنظر إلى الزيجورا بشغف:
ها قد وصلنا. أخيرًا! أريد أن أرى أين تُباع أغنيات العشق الحقيقي، لا تلك التي اقتُبست أو سُرقت.
ابتسم الدكتور وقال :
يا ابنتي... حتى العشق الحقيقي يُسرَق أحيانًا.
قالت المثقفة وهي تتأمل تماثيل الأسود المجنحة :
هل تعتقد يا دكتور أن لوجال كان ليغضب لو علم أن شعره سيُنسب لغيره بعد ألف عام؟
أجابها:
ربما... وربما كان سيفرح أنه عاش أطول مما عاش جسده . الشعراء يا آنسة لا يبحثون عن العدل... بل عن الخلود.
قلت لهم وأنا أنظر إلى المدينة التي تتنفس عبر الزمن :
ربما الخلود ليس في أن تُذكَر... بل في أن تظل كلماتنا قادرة على أن تُدهش أحدًا في زمنٍ لا نعرفه.

وساد بيننا صمت طويل ، لم يقطعه سوى صوت الريح وهي تمرّ عبر حجارة الزيجورا ، فتبدو كأنها تهمس :

كل كلمة تُقال تُعاد... وكل قصة تبدأ لا تنتهي حقًا... بل تتحول.

*

وقفنا عند عتبة الزيجورا.

الشمس مائلة للغروب ، والمدينة تغتسل بضوء ذهبي يجعل الطين يشبه الذهب القديم.

لا ندري هل سنصعد إلى أعلى السلم أم سنعود أدراجنا... هل نشتري كراسة الأغاني أم نهرب من صخبها ...هل نصدّق لوجال أم نصدّق التاريخ اللاحق...

كل ما نعرفه أننا كنا هناك، لحظة واحدة، في سوقٍ يعبر الزمن مثل شريط بردي...

وكأن الكلمات التي سمعناها ستعود يومًا، في عصر آخر، في كتاب آخر، في أغنية أخرى...

لكنها ستعود.

وهذا وحده... كان يكفي.

حين تتكلّم الزيجورات

في ذلك الصباح البابليّ البعيد ، حين كانت الشمس تخرج من بين جفون الضباب كأنّها إلهةٌ تتثاءب بعد ليلةٍ طويلة من حراسة الكون ، بدا سوق الزيجورات أشبه بكونٍ صغير يضجّ بالألوان ، بالأصوات ، بالروائح التي تتشابك كخيوط نولٍ عملاق.

لم أكن قد وطئتُ مكانًا كهذا من قبل ؛ كأنّي دخلتُ معبَدًا لا يعبد فيه الناسُ الآلهة ، بل البضائع... والقصص... والذكريات.

كانت خطواتي تتقدّم ببطءٍ خلف الدكتور شويبر ، فيما تدور في داخلي عجلاتُ تيارٍ لا يهدأ من الأسئلة :

من أين تنطلق الأشياء ؟

ولماذا يهرب الإنسان من هشاشته نحو التملك... نحو السوق... نحو الازدحام ؟

أكنتُ أهرب أنا أيضًا ؟

أم أنّني فقط أبحث عن نفسي وسط صخبٍ أقدمَ من التاريخ؟

⊥

كان الدكتور يتقدّمنا كدليلٍ قديمٍ منقوشٍ في ألواح الطين ، ينظر إلى الزيجورات كما ينظر العالِم إلى حكايةٍ يعرف نهايتها ، ومع ذلك يسحره سردها كلّ مرة .

أما صديقتي، فكانت تتنقّل بعينيها الفضوليّتين من واجهةٍ إلى أخرى ، كأنّ العالم لا يسع اكتشافاتها.

سوق الأقمشة

وقفتُ أمام زيجورا مخصّصة للأقمشة: صوفٌ كثيف ، كتانٌ ناعم ، ألوانٌ طبيعية تتدرّج بين لون الحنطة وبياض العظام القديمة.

كانت الرائحة خليطًا من عرق النسّاجين ومن عبق السفر الطويل ؛ رائحة حضاراتٍ تتصافح.

" هنا يا دكتور... كأنّ الزمن يرفرف مع الأقمشة ".

ابتسم الدكتور قليلًا :

" هذه الزيجورات يا ابنتي ليست أسواقًا فحسب . هي أرشيفٌ لرحلات البشر".

سوق الزيوت والنبيذ

دخلنا زيجورا أخرى يتصاعد منها عبق الجعة والنبيذ وزيوت السمسم والذرة. تقدّمنا صاحب دكانٍ ضخم الكرش ، يده ملطّخة بلون الزيت ، وصوته يحمل ثقة ألف تاجر.

قال بصوتٍ عالٍ وهو يشير إلى جرارٍ مصطفّة :

" وأي عجب في هذا ؟ نحن نبيع كلّ ما يدور في الأرض من دهونٍ وسوائل . جعتُكم هذه، والله، تتفوق على الجعة الفرعونية "!

ضحكتُ بيني وبين نفسي.

كم من المرات ادّعى البشر التفوّق ؟

ولماذا يحتاج البائع دائمًا إلى أن يصرخ ليقنعك بأنّ بضاعته الأفضل ؟

هل كان يحاول إقناعنا... أم إقناع نفسه؟

⊥

خرجنا من تلك الزيجورا ، فإذا بصديقتي تسأل :

" كل الأسواق في الطابق الأرضي يا دكتور... لماذا ؟"

قال بثقة العالم الذي يحمل معلومة تُرضي فضول الجميع :

" لأنّ هناك أنواعًا من البضائع لا يمكن حملها إلى الطوابق العليا. خصوصًا السوائم. تخيّلي خيولًا أو أبقارًا تصعد السلالم"!

ضحكنا ، وتقدّمنا إلى زيجوراتٍ قريبة من الطريق المؤدي إلى الحدائق المعلّقة.

سوق السوائم... و"حمير البحر"

رائحة عفنة... خليطٌ من روث الحمير والعرق والتراب . ومع ذلك كان المكان مكتظًا بالناس.

اقتربنا من حظيرةٍ يقف عند بابها تاجرٌ طويل القامة ، عيونه ضيقة وملامحه تحمل ذكاء المساومة.

سأله الدكتور:

" يا سيدنا البائع ، لماذا هذا الإقبال الشديد ؟ "

ردّ الرجل بثقة :

" ألا تعلمون؟ حمير بابل أشهر حمير الدنيا. هذا الحمار من سلالة نسمّيها **حمير البحر**".

وقفتُ مذهولة أمام الحيوان.

قلت:
" يا سيدنا... هذه ناقة "!

قهقه الرجل :

"ونسميها حمار البحر لأنها تمخر عباب الرمال كما تمخر السفينة عباب الماء ".

ثم انتقل إلى آخر:

“ وهذا هو **حمار الجبل** ...لا يقاومه أحد قوةً وقدرةً على السير بين الشعاب ”.

اعترضت صديقتي :

“ يا رجل! هذا بغل ”!

ضحك بصوتٍ عالٍ :

"وما الفرق ؟ كلها حمير ”!

ثم أشار إلى جوادٍ مطهّم ، برقٌ يجري في جسد حصان :

“ وهذا... هذا حمار الأمراء ”.

عندها انفجر الدكتور شويبر ضاحكًا :

“ لا جدوى من الجدل مع تاجر السوائم... فالكل عنده حمير ”!

⊥

الزيجورا الملوّنة... وأناقة الثراء

ابتعدنا قليلًا حتى وصلنا إلى زيجورا ملوّنة بألوانٍ زاهية كأنّها احتفالٌ معلّق على جدار الزمن.

قلت :

“ لعلّ علية القوم يقيمون في طوابقها ، يا دكتور ؟ ”

هزّ رأسه نافيًا :

" ليست الألوان دليلًا على المكانة . إنها تعكس رفاهة البضاعة . فهنا تُباع أثمن البضائع ”.

وقبل أن يدخل إلى عمق الزيجورا ، توقّفنا فجأة أمام مشهدٍ صادم.

كانت هناك فتياتٌ صغيرات، سبايا... أعينهنّ واسعة كأنها تبحث عن تبريرٍ للقدر ، ملابسهنّ فاخرة بطريقة لا تخفي القيد النفسي الذي يربطهنّ . وقفتُ مصعوقة.

“ يا دكتور... هذا سوق نخاسة ؟ ”

قال بصوتٍ هادئٍ كأنه يعيد درسًا في التاريخ :

“ في المدخل فقط يعرضون أجملهن . نحن في زمنٍ تزدهر فيه النخاسة . أما داخل الزيجورا... فهناك الجواهر والفوات المنقوشة من الهند والصين ”.

أحسستُ شيئًا يخنقني .

كيف يمكن أن يجتمع الجمال بالاسترقاق ؟

كيف تعيش اللؤلؤة في نفس المكان الذي تعيش فيه القيود ؟ أكان البشر دائمًا بهذا التناقض ؟

⊥

شارع زوبيروس

تابعنا السير.

وإذا بصديقتي تشير إلى لافتة.

“ انظروا ! هذا الشارع اسمه **شارع زوبيروس** ”.

ومررنا بآخر... ثم آخر .

شارع أسواق النبيذ ؟ زوبيروس.

شارع حمير السوائم ؟ زوبيروس.

قلت :

“ لا شك أنّ زوبيروس شخصية عظيمة ”.

تنهّد الدكتور طويلًا ، وكأنّه يستعد لفتح بابٍ في الذاكرة لا يُفتح إلا بحذر شديد .

“ زوبيروس... حارت البريّة في أمره . منهم من يراه بطلًا شجاعًا... ومنهم من يراه خائنًا سفّاحًا ”.

سكتَ قليلاً.

وبرزت في داخلي رغبة غريبة : أن أعرف من هو الرجل . أكان بطلاً أم خائنًا ؟

أم أن البشر دائمًا نصنع لهم صورتين... لندفن حقيقتهم بينهما؟

⊥

وبينما نمشي، كان شيءٌ في داخلي يتمدّد كظلّ طويل فوق حجارة الشارع.

هل نحن حقًّا نرى بابل... أم نرى أنفسنا فيها ؟

هل الأسواق تُشبه الإنسان ؟

كتلٌ من الرغبات... من الأقنعة... من الأشياء التي نظنّ أننا نملكها بينما هي التي تملكنا.

هناك زيجورا للنبيذ... وأخرى للحمير... وثالثة للجواهر... ورابعة للسبايا.

والإنسان نفسه... هل هو أيضًا زيجورا ؟

طابقٌ أرضيّ فيه ثقل غرائزه... وطوابق عليا لا يصعد إليها إلا مَن عرف كيف ينقل " بضاعته " من الظلام إلى النور.

ربما كان زوبيروس نفسه زيجورا... بطلٌ في طابق، خائنٌ في آخر. أليس هذا ما يحدث لكل البشر ؟

⊥

قالت صديقتي:

" أريد أن أفهم يا دكتور... هل كان زوبيروس بطلًا أم خائنًا ؟ "

ابتسم الدكتور ، ابتسامة العالم الذي يعرف أنّ الحقيقة ليست في الجواب ، بل في السؤال :

" يا ابنتي... التاريخ لا يجيب . التاريخ يكتفي بأن يقدّم لنا الحكاية... ويترك الحكم لنا ".

سألته :

" وأنت؟ كيف تراه ؟"

نظر إليّ نظرةً طويلة ، كأنه يرى من خلالي ، لا إليّ:

"أراه إنسانًا.

والإنسان يا ابنتي... لا يُختصر بوجهٍ واحد".

⊥

انتبهت إلى أن النهار بدأ ينسحب ببطء ، وأنّ الظلال الطويلة تغطي الزيجورات ، كأنّ الليل يمسح عنها هويّتها لتعود أحجارًا بلا أسماء.

لكن شيئًا في داخلي كان يرفض أن يهدأ

كنت أشعر بأنّ زوبيروس، أيًّا كان، يراقبنا من خلف جدار الزمن... يبتسم بدهاء... أو بحزن... أو بكليهما.

وربما، فقط ربما، كان ينتظر من يروي حكايته من جديد.

⊥

سرتُ مع الدكتور وصديقتي نحو مخرج السوق ، وظلّت في أذني أصوات الباعة ، رائحة الزيوت ، صهيل الحمير والجياد ، ووجوه السبايا التي لم تُمحَ من ذاكرتي.

وعند آخر درجات الممر ، التفتُّ إلى الزيجورات التي بدت كمجدافٍ يحفر في نهر التاريخ.

تساءلتُ :

هل نحن من نُعيد قراءة الزيجورات... أم أنّ الزيجورات هي التي تعيد قراءة أرواحنا ؟

لم أعرف الجواب .

لكنني واصلتُ السير...

على أمل أن يبوح لي شارعٌ آخر ...أو زيجورا أخرى... بشيءٍ من الحقيقة الضائعة بين البطل... والخائن... والإنسان.

خديعة زوبيروس...

كانت بابل، في تلك الشهور الستة ، تشبه كائناً أسطورياً يلهث بين أنقاض تاريخه ، كالروح التي تبحث في الليل عن جسدها المفقود . تتصاعد من الأزقة رائحة الطين القديم ، مختلطة بقلق الناس وهدير الأسئلة التي لا تجد جواباً . وعلى الأسوار التي رممتها الأيدي المرتجفة ، كان الحراس يحدقون في الأفق الفارسي الممتد كالأقدار ، يترصدون كل حركة تحت ضوء القمر.

وفي هذا الجو المتوتر، كان **زوبيروس**، الوزير المقطوع الأنف والأذنين، يسير في طرقات المدينة وكأنه شبح من حكايات ما قبل الطوفان. لم يكن مجرد رجل mutilated ؛ كان علامة ، لغزاً ، سؤالاً يطارد خيال الناس :

هل هو بطل أم قدرٌ ذو وجهين ؟ هل هو فداء أم نذير موت ؟ وهل يتخفى خلف تلك الندوب شيء أعمق من الألم؟

⊥

ذات صباحٍ أليف ورياح الصباح تلمس حجارة بابل العتيقة ، وقف زوبيروس أمام الملك البابلي ، وقال بنبرة لا تعرف التردد :

" يا ملك بابل ، لقد طال السكون ، وآن لنا أن نخضّ مضجع الفرس. دعني أحمل مائة من رجالنا ونغير على كمائنهم المعزولة ".

لم يكن أحد ، لا الملك ولا القادة ، يتساءل :

ما الذي يدفع هذا الرجل المكسور الهيئة إلى هذا القدر من الجرأة ؟ هل هو الغضب... أم شيء آخر ؟

كان الملك يرى فيه رجلاً ذا تاريخ غامض ، لكنه كان محتاجاً لأي أمل ، فقال :

" امضِ إن شئت، فالمدينة عطشى لانتصارٍ واحد قد يعيد للناس إيمانهم".

⊥

خرج زوبيروس ومعه مائة مقاتل ، وغاب لأيام ثلاثة . كانت المدينة في تلك المدة تتقلب على جمر الترقب . حتى إذا عاد ، عاد كأنما خرج من فم أسطورة : عيناه تقدحان شرراً ، ودماء العدو تقطر من أطراف سيوف الرجال الذين رافقوه .

وقبل أن يسأله أحد ، صرخ بملء صدره أمام الجموع :

" هؤلاء العشرون من فارس ، من أردى بهم رجالي ، ورجالكم يا أحفاد نبوخذ نصر ، قد قتلوا ألفاً من فرسان داريوس ، عدوي وعدوكم"!

اشتعلت بابل هتافاً ، وكأن المدينة كانت تنتظر تلك الكلمة لتنفض عن روحها غبار الانكسار .

ولأول مرة منذ حصار الفرس ، رفعت بابل رأسها عالية ، وبدأ الناس يتحدثون عن " المعجزة "، عن " البطل المخلص "، عن " رجل ظهرت فيه آلهة بابل. "

⊥

توالت الغزوات ، وكل غزوة أشبه برقصة موت سريالية .

يخرج زوبيروس في الليل ، يعود في الفجر ، كأنه يجر خلفه ظلال طيرٍ أسود .

وفي كل مرة ، تعرض الساحات أمام الناس قتلى من الفرس ، وأسرى يُنحرون كما تُنحر الإبل ، فأصبح مشهد الدم مألوفاً في المدينة ، بل صار رمزاً للنصر.

أمّا هو ، فكان يعود صامتاً بعد كل معركة .

يدخل داره ، يغلق الباب ، ويجلس في الظلام .

وهناك ، في ذلك السكون ، كان يعيد ترتيب فوضى ذهنه **المضطرب**:

" يا زوبيروس... أي ثمن هذا الذي تدفعه ؟ هل أنت سيد اللعبة أم عبدها ؟ أهذه الخديعة صنعتها بيدك أم صنعتك هي ؟ أتراك قادر أن تنظر في أعين من تثق بك حين تأتي النهاية ؟ "

كان يعرف أن كل هذا البناء الشاهق من الثقة ، كل هذه الانتصارات السريعة ، كلها لم تكن إلا **مقدمة لخيانة واحدة** ...خيانة أكبر من أن تُروى بلغة البشر.

⊥

وفي اليوم المنتظر ، يوم بلغ الشعب نشوته القصوى ، جاء الملك البابلي إلى زوبيروس ، وقال بصوت الحاكم الذي يسلّم حياته لرجل آخر:

" أيها الوزير العظيم ، لقد رأى الشعب فيك قدر بابل . اتفق القادة على أن تكون أنت القائد الأعلى للجيش . قدنا إلى النصر الحاسم ، فقد آن لبابل أن تستعيد مجدها ".

توقف الزمن لوهلة.

في تلك اللحظة ، مرّت في ذهن زوبيروس كل الوجوه التي ستنذبح بعد ساعات .

مرّت طفولته في بلاد فارس .

مرّ وجه داريوس ، ملكه الذي يعرفه أكثر مما يعرف نفسه . مرّت يد الجلاد وهي تقطع أذنيه... ويد أخرى تشوه أنفه... وظهره الذي تلقى الجلدات .

كل ذلك... كان باركود الخيانة التي رسمها بنفسه.

همس لداخله صوتٌ خافتٌ ، صوت يشبه دمعة معلقة في منتصف سقوط:

"هل كنت مخيراً ؟ أم أن داريوس قد جعل منك تمثالاً للمروءة المزيفة ؟ ".

لكنه رفع رأسه ، وابتسم ابتسامة لا يعرف أحد ما خلفها.

⊥

ثم جاءت تلك الليلة. ليلة كُتب فيها تاريخ جديد بدماء بابل.

المدينة كانت نائمة... أم تظاهرَت بأنها نائمة.

النجوم فوقها ترتجف . والأنهار تجري بصوت يشبه نحيب امرأة فقدت أبناءها.

اقترب زوبيروس من باب المدينة .

كان الحراس الذين يثقون به ينظرون إليه بطمأنينة أشبه بالسذاجة. لم يخطر لأحدهم أن الرجل الذي قاتل الفرس ستة أشهر متواصلة... قد يكون هو الجسر الذي سيمر منه العدو.

وبإشارة خفيفة من يده، فُتحت الأبواب.

انقض الفرس مثل عاصفة سوداء.

دخلوا المدينة وهم يعوون كذئاب خرجت من جثة الليل. والسيوف راحت تقطع الهواء قبل أن تقطع الرقاب.

ارتفعت النار ، ارتفع الصراخ ، وارتفعت الخيانة فوق كل شيء.

وفي تلك الساعات، التي اختلط فيها الماضي بالحاضر، هدمت صروح سومر ، وسقطت الزيجورات ، وتحول تاريخ طويل إلى غبار يتصاعد في السماء كروحٍ لا تجد قبرها.

⊥

في اليوم التالي، حين أدرك الناس معنى ما جرى، انتشر السؤال كالنار:

" هل كانت خديعة ؟ "

وكان الجواب ينتشر كسمّ:

" أجل... كان اتفاقاً بين داريوس ووزيره زوبيروس . لقد ضحّى بأذنيه وأنفه وجلده ليظفر بثقة بابل ، ثم يسلمها للفرس ".

ولكنهم لم يدركوا أن زوبيروس ، في لحظة الفتح، لم يشعر بالنصر كما تصور داريوس، ولا بالخيانة كما رآها البابليون...

بل شعر بشيء آخر entirely:

شعور رجلٍ أُغلق عليه قفص قدره ، فقام بدوره كعبدٍ ماهر، ثم عاد إلى ظلام نفسه.

⊥

تقول إحدى الروايات إن زوبيروس وقف فوق أحد أبراج بابل بعد السقوط، يحدق في المدينة التي آمنت به ، وقال مخاطباً نفسه:

" أيها الوزير العظيم... أيها الخائن العظيم... أيّكما أنت ؟ "

وتقول رواية أخرى إن امرأة بابليّة ، كانت تبحث عن طفلها بين الأنقاض ، رفعت رأسها نحوه ، وبصقت، وقالت:

" لقد أسلموا القط مفتاح الكرار".

وتقول رواية ثالثة إن زوبيروس لم ينم تلك الليلة ، بل ظلّ يحدق في القمر ، وكأنما سأل السماء:

" هل هناك وطن لوجهٍ بلا أنف... ولرجل بلا أذنين ؟ "

وما بقي من القصة سوى آثار خطوات على تراب بابل ، وخديعةٍ خلّدها الزمن كجرحٍ مفتوح.

⊥

هكذا كان تاريخ بابل:

ملحمة من العجائب والغرائب ، مدينةٌ تُفتح بالخديعة بعد أن صمدت بالسيوف، ورجلٌ واحد قُطعت أعضاؤه ليكتمل دوره في مسرح القدر.

ومع ذلك ...تبقى النهاية مفتوحة:

هل كان زوبيروس بطلاً خارقاً في فدائه ؟

أم خائناً موصوماً بدم مدينة كاملة ؟

أم كان مجرّد أداة في يد إمبراطورية أعظم ؟

ربما ستظل بابل ، بكل ما حملته من صروح ودماء وسماءٍ ملآى بالأسئلة ، هي وحدها من يعرف الجواب.